ما وراء صورة المرأة المثقَّفة في "ألف ليلة وليلة"

-حكاية الجارية تودّد أنموذجًا-

* د. غسان إسماعيل عبد الخالق

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة فيلادلفيا / الأردن

ملخص

تقدّم حكاية الجارية (تودّد) وعودًا رحبة، للناقد الثقافي المهجوس بالبحث عن الأنساق المتوارية خلف غلالات السرد الشهرزادي؛ فهي تشتمل على نسق فكري عام، يؤكد حقيقة أن منشئها مثقف لا يستهان به وليس ساردًا شفويًا شعبويًا، كما هو حال سائر الساردين في (ألف ليلة وليلة). وثمة نسق عام آخر يفصح عن تأصّل الجانب المعرفي في شخصية المرأة بوجه عام وفي شخصية المرأة المسرودة في (ألف ليلة وليلة) بوجه خاص. ومن شأن هذا الإفصاح أن يقوّض الصورة النمطية السائدة عن المرأة، بوصفها كائنًا مولعًا بمواجهة الصعاب من خلال أحابيل الإغواء. كما أن الحكاية تشتمل على أنساق إيديولوجية وسياسية أُدرجت على نحو ذكي ومدروس في السياق السردي العام، لإنشاء صورة جديدة للخليفة هارون الرشيد على أنقاض صورته النمطية المتداولة من جهة، وعلى أنقاض الصور النمطية المتداولة للبرامكة من جهة ثانية، ولتمجيد الدولة العباسية والفقه السنّي بمذاهبه الأربعة، فضلاً عن التوسّط في المفاضلة بين العباسيين والعلويين من جهة ثالثة.

وأمّا بخصوص المذهب الكلامي بوجه عام والمذهب الاعتزالي بوجه خاص، فقد تمّ توظيف (إبراهيم بن سيّار النظّام) توظيفًا فنيًا في المقام الأول، دون أن يقترن هذا التوظيف بدلالات إيجابية فاقعة يمكن الانطلاق منها للزعم بتعاطف السارد مع فكر النظّام أو فكر المعتزلة، ودون أن يقترن أيضًا بدلالات سلبية فاقعة يمكن الاستناد إليها للزعم بتحامل السارد على النظّام أو المعتزلة.

لقد عمل الباحث في هذه الدراسة، على تفكيك الحكاية وإعادة بنائها، من خلال الحرص على المزاوجة بين الاستنطاق النقدي للسياق السردي والاستنطاق التاريخي والإيديولوجي له في آن واحد. ولم يدّخر وسعًا لتأصيل وتحليل وتأويل كل ما حسبه ضروريًا وجوهريًا في الحكاية، سواء فيما تعلّق بإثبات وجود أصول للحكاية في كتاب (الفرج بعد الشدّة) للقاضي التنوخي، أو فيما تعلّق بإعادة بناء شخصية هارون الرشيد أو إبراهيم بن سيار النظّام.